

تمهيد :

يعتبر الحيز العمراني التراثي من الإشكاليات المطروحة بشدة على الساحة المعاصرة من حيث إمكانيات التعامل وأهداف التنمية والحفاظ ، وذلك لما يمثله هذا الحيز من تداخل بين القديم والحديث وبين الجيد والرديء حيث التداخل بين المتناقضات والقيم المتغايرة . إن أغلب المناطق التراثية ذات القيمة تقع في محيط حيوي نابض وعمران قائم، مما يوجد نوع من التفاعل بين تلك النطاقات والتأثير المتبادل، حيث تؤثر البيئة العمرانية المحيطة على المناطق التراثية وتتأثر بها، وهو ما يستوجب الوعي بمدخلات البيئة العمرانية المحيطة وعلاقتها بالمناطق ذات القيمة. وتعتبر الحياة النابضة في العمران المحيط بالمناطق الأثرية جزءاً مكمل للتجربة التراثية للأثر وإن كان لها بعض التأثيرات السلبية إلا أنه لا يمكن الاستغناء عنها، وإلا أصبحت هذه الآثار بلا روح ولا هوية مجتمعية، حيث أن الحياة النابضة في قلب المنطقة التراثية تمثل جانب كبير من هوية المكان من خلال المحاولات المستمرة لعمليات الحفاظ على المناطق الأثرية، ظهرت مجموعة من المداخل والمشروعات ذات التوجهات المختلفة، منها ما هو ناجح ومنها ما يعاني من بعض السلبيات ولا يؤدي إلى النتائج المتوقعة.

إن تدهور الحالة العمرانية للنطاقات المحيطة بالآثار والمناطق ذات القيمة يتميز بظهور بعض السلبيات على الأثر نتيجة للمؤثرات الخارجية الناتجة عن البيئة العمرانية المحيطة، فالبيئة العمرانية المحيطة بالأثر تعتبر أحد المؤثرات الهامة التي تغير من حالة الأثر. إن تأثيرات العنصر البشري على عمليات الحفاظ بمستوياته المختلفة هي نقطة هامة يجب التركيز عليها حال التعامل مع المناطق التراثية. حيث أن اعتداءات البشر على المباني والمناطق التاريخية قضية مزمنة جرت على هذه المباني أفدح النتائج وجرت على التاريخ الحضاري خسائر جسيمة . والمشاكل الناتجة من اعتداءات البشر يمكن أن نوجزها في العوامل التالية: الاجتماعية ، العمرانية ، الاقتصادية ، الثقافية ، القانونية ، الإدارية والتنظيمية وأخيراً العوامل الناتجة من الأنشطة التكنولوجية .

العوامل المؤدية إلى تدهور عمران المناطق التاريخية:

إن المناطق العمرانية المتدهورة توصف من الناحية التخطيطية بعدم قدرتها على تلبية الاحتياجات الأساسية التخطيطية لقاطنيها و عدم قدرتها على التعامل مع المعطيات المتطورة و المحددات التخطيطية الحديثة مثل عروض الشوارع والممرات والكثافة السكانية ، كفاءة الخدمات ، كفاءة البنية الأساسية ،ومن الناحية المعمارية بعدم قدرة المباني على تحقيق متطلبات و احتياجات القاطنين الفعلية أو عدم ملائمة وظيفة المبنى القديمة مما يتضح معه مدى القصور الذي أصاب هذه المناطق نظراً لتغير الظروف و العوامل الاجتماعية و الاقتصادية والثقافية و السياسية و التطور التكنولوجي و كذلك المعايير التخطيطية و التصميمية و نتيجة للفجوة الحضارية بين المجتمع و البيئة المحيطة

أصبح من الضروري إعادة تخطيط هذه المناطق بما يتناسب و المتطلبات العصرية و الحديثة مع الحفاظ على روح التراث برفع الكفاءة التخطيطية لها بما يخدم المناطق التاريخية و البيئة العمرانية المحيطة. وقد أمكن تحديد أسباب التدهور للمناطق التاريخية في العوامل الآتية:

1/ العوامل الطبيعية :

هي العوامل الناتجة عن خصائص البيئة الطبيعية متمثلة في الشمس وتحوي(الإشعاع الشمسي)،المناخ وتحوي(لحرارة والرياح والأمطار) ،الكوارث الطبيعية وتحوي(الفيضانات والزلازل والبراكين والبرق والرعد)، المشاكل البيولوجية وتحوي (الحيوانات الضارة والطيور والحشرات والنباتات والفطريات والبكتريا).

2/ العوامل الناتجة عن الأنشطة الإنسانية :

- النمو السكاني المتزايد :

تعاني المناطق التاريخية وخاصة في المناطق المركزية القديمة للمدن من التضخم السكاني وذلك إما نتيجة الزيادة الطبيعية الناتجة من زيادة نسبة المواليد أو زيادة معدلات الهجرة إلى هذه المناطق ومن هنا فقد زادت الكثافة السكانية بالمناطق التاريخية.

- التحول الاجتماعي :

نتيجة للتحولات الاجتماعية والاقتصادية حدث تغيير كبير في نمط وحجم وطابع الأسرة ونزوعها إلى الاستقلالية بدلا من نمط الأسرة الممتدة الذي كان سائداً وتقليدياً في الماضي .وقد كان هذا التغيير هو أحد أسباب الهجرة من المناطق القديمة في القلب التاريخي للمدن إلى الأحياء الجديدة واستبدال المنازل القديمة الكبيرة و تحول الأسرة الواحدة إلى أسر صغيرة مستقلة كل في شقة خاصة بالمناطق الجديدة . كما تم إعمار هذه المساكن بأسر ريفية نزحت مع الهجرة المستمرة من الريف إلى المدينة وتم تقسيم المنازل الضيقة لكي تقطن به أكثر من أسرة نظراً لسوء الحالة الاقتصادية لهذه الأسر . وقد كان هذا التقسيم يتم بصورة عشوائية يتعارض مع مبادئ تصميم هذه المباني ووظيفة عناصرها كما حدثت إضافات طفيلية بمواد دخيلة وغريبة علي المباني التاريخية، مما زاد في فقدانها لطابعها العمراني والمعماري . إضافة إلى مجموعة من العوامل الاجتماعية الأخرى المرتبطة سلباً بعمران المدن التاريخية نوجزها في النقاط التالية/

- عدم الشعور بالمسؤولية والانتماء للمنطقة من سكانها الحاليين نتيجة لعدم ارتباطهم بهذه المناطق وهذا يؤدي إلى غياب الوعي الذي يؤدي إلى الإساءة للبيئة العمرانية بهذه المناطق وبالتالي للمباني التاريخية بها.
- نتج عن هذا التحول الاجتماعي تحول عمراني حيث تغيرت خريطة استعمالات الأراضي بأنشطة غريبة كالورش والمحلات التجارية نتيجة لتعديلات الأهالي بالبناء أو استغلالهم للمباني التاريخية في القيام بهذه الأنشطة.

- انخفاض معدلات الخدمات والمرافق العامة في المناطق التاريخية نتيجة للنمو العمراني الغير موجه وزيادة معدلات التزاحم وحجم السكان دون أن تقابله زيادة في حجم الخدمات والمرافق العامة اللازمة لهؤلاء السكان.
- ارتفاع نسبة الأمراض الاجتماعية كالسرقة والإدمان والتطرف وتجارة السموم وسوء العلاقات الاجتماعية والأسرية نتيجة تدني المستوى الاقتصادي والثقافي للسكان الوافدين لهذه المناطق.

3/ العوامل العمرانية:

- سوء حالة المباني عموماً بالمنطقة التاريخية نتيجة عدم الصيانة الدورية لها وكذلك المباني الأثرية بصفة خاصة، مما يؤدي إلى تدهور البيئة العمرانية للمنطقة التاريخية ككل.
- ارتفاع معدلات التغيير للمباني القديمة بمباني حديثة لا تتلاءم مع النمط والطراز والبيئة في هذه المناطق.
- عدم تلبية البيئة العمرانية للمنطقة التاريخية لاحتياجات قاطنيها من خدمات أساسية.
- استخدام المباني في غير الغرض المنشأة من أجله كاستخدام الأسبلة والمساجد القديمة والوكالات للسكن أو كمخازن أو كاستخدام بعض المنازل كمدارس لسد النقص في الخدمات في هذه المناطق.
- الخلل في توزيع الاستعمالات والتداخل فيما بينها ودخول أنشطة غريبة علي هذه المناطق صناعية وتجارية وورش ومسالك مما يؤدي إلى تدهور البيئة العمرانية بصفة عامة.
- اختلاف وسائل النقل من دواب وعربات إلى سيارات ووسائل نقل حديثة أدى إلى عدم قدرة الطرق والشوارع بالمناطق القديمة إلى ملائمة هذا التطور وأدى كذلك إلى زيادة معدلات التلوث و بالتالي تداعي المباني الأثرية في هذه المناطق.
- عدم ملائمة الطرق والحارات ذات النهايات المسدودة والتخطيط ذو النسيج المتضام لوسائل النقل الحديثة فكان أن حاول السكان الجدد في تغيير هذا النسيج مما عرض هذه المناطق إلى فقدان طابعها المميز وكذلك تدهور حالة الشوارع.
- سوء حالة المرافق العامة كالصرف الصحي والتي تؤدي إلى ارتفاع المياه الجوفية نتيجة لزيادة وتغير مكونات المياه الجوفية وارتفاع منسوبها مما يؤثر سلباً علي المباني بالمناطق التاريخية.

4/ العوامل الاقتصادية :

- تحول القاعدة الاقتصادية للمدن و بالتالي للمناطق التاريخية بها من الاعتماد علي الحرف التقليدية اليدوية والتجارة إلى الاعتماد علي الصناعات ذات الأشكال والمواصفات والأحجام المختلفة وظهرت أشكال جديدة للتبادل الاقتصادي خارج المدينة القديمة مختلفة كل الاختلاف عن الأشكال التقليدية كالأسواق والخانات والقيساريات وتحولت الأخيرة إلى مخازن وورش ومصانع ذات صناعات ملوثة تعتمد على الآلات فأدت بالتالي إلى حدوث بطالة بين السكان في المناطق التاريخية.

- غزو الاستعمالات التجارية للمناطق السكنية مما أدى لزيادة سعر الأراضي وتغيير الاستعمالات بها وبالتالي توقف أعمال الصيانة والتجديد في انتظار هدم المباني القديمة ذات الارتفاع المنخفض لتحل محلها مباني بارتفاع كبير تتناسب مع سعر الأرض الجديدة ولكنها تفسد الطابع العمراني لهذه المناطق .وقد اتجهت رءوس الأموال المحلية إلى توظيف الأموال في شراء البيوت المتداعية وتحويلها إلى مستودعات أو إلى ورش مما أدى إلى تغيير الوظيفة الأساسية ببعض الأحياء السكنية واستبدالها بوظيفة صناعية لا تناسب وتصميم المساكن التي تشغلها وتم تعديل تصميم المساكن الموجودة وإجراء تعديلات جذرية في إنشائها وتوزيعها لكي تتأقلم مع الوظيفة الجديدة.
- أدى استدراج حركة السيارات داخل الأحياء السكنية القديمة لنقل المواد الأولية وتسويق العناصر المصنعة وتخدم الورش الصناعية إلى فتح المزيد من الشوارع في المدينة القديمة وإلى زيادة الضغط على النسيج العمراني القديم والمرافق وشبكات البنية الأساسية والخدمات وذلك نتيجة الكثافة البنائية المترتبة على الامتداد الرأسي وعجز القوانين المنظمة للعمران.
- عدم توفير الدعم والتمويل اللازم للقيام بالحفاظ على تراث هذه المناطق القديمة وكذلك عدم توافر العمالة الفنية المدربة في مجال صيانة وترميم والحفاظ على هذه المباني وذلك لأسباب تكنولوجية ودخول مواد وطرق وأساليب بناء جديدة أو لعدم الطلب على هذه النوعية من العمالة مما أدى إلى انقراض هذه النوعية اللازمة والضرورية للاهتمام بصيانة هذا التراث الفريد.

5/ العوامل الثقافية :

- هجرة السكان الأصليين إلى مناطق جديدة فحل محلهم سكان لا يعلمون القيمة التاريخية والفنية للمنطقة التي سكنوها ولا للمباني التاريخية و عدم الإحساس بالانتماء للمكان.
- سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للسكان بهذه المناطق مما يدعوهم للاعتقاد بأن التفكير في أهمية التراث نوع من الترف لأن لديهم أعباء والتزامات أكثر أهمية.
- ترك و إهمال و عدم استعمال أغلب المباني التاريخية من قبل المسؤولين في هذه المناطق جعل السكان لا يشعرون بفائدة محسوسة لهذه المباني مما يشجعهم للمحافظة عليها.
- تقصير وسائل الإعلام الواضح في إظهار تراثنا الحضاري والتوعية بأهميته القومية الإقليمية والمحلية وقيمه كأحد مصادر الدخل الأساسية إذا تم الاهتمام به و صيانتها كواجهة حضارية لنا دولياً و غرس الشعور بالانتماء لهذا التراث الحضاري والإنساني بين المواطنين.
- القصور الواضح في مناهج التعليم في المراحل المختلفة في التوعية بتراثنا الحضاري وأهميته ووجوب المحافظة عليه وإعادة استخدامه بما يعود بالنفع على المجتمع بالإضافة إلى انتشار الأمية بصورة كبيرة .
- القصور الشديد في الكفاءات الفنية المدربة وخاصة المهندسين المرممين و الأثرين ذوي الكفاءة.

6/ العوامل القانونية و الإدارية التنظيمية:

يعتبر غياب النظم و الأطر القانونية اللازمة أو عدم تطبيقها العامل المهم في استمرار التعدي على المباني الأثرية و إهمالها أو عدم الحفاظ على ما تبقى منها و بالتالي اندثارها . بالإضافة إلى القصور الشديد في التشريعات الخاصة بالمناطق التاريخية فإن غياب الهياكل التنظيمية والإدارية التي تعمل على تنفيذ القوانين وتعمل على التوجيه والتحكم في العمران في المناطق التاريخية أدى إلى تفاقم الوضع هذا بالإضافة إلى تعدد وتضارب الاختصاصات بين الأجهزة المختلفة الحالية. وتتمثل أهم المشاكل الناتجة عن غياب الأجهزة الإدارية والتنظيمية في الآتي :

- تعدد إشراف الأجهزة الإدارية على المباني والمناطق التاريخية فالبعض يخضع لإشراف وزارة الأوقاف والبعض للثقافة و البعض للبلدية أو الولاية ، وزارة السياحة وزارة المجاهدين، العمران و المدينة ... وغيرها و هذا ما يؤدي إلى تضارب الاتجاهات وضياع الوقت و المجهود في المراسلات وخطط الأجهزة المختصة و التصاريح اللازمة و عدم تخصيص التمويل اللازم والكافي لأعمال الصيانة والترميم بالإضافة إلى تفتيت التمويل المخصص إن وجد لهذه المباني والمناطق بين هذه المصالح المختلفة و كل هذا على حساب المدن التاريخية.
- تأجير بعض المباني التاريخية إلى القطاع الخاص وسوء استخدام هذه الأماكن لوظائف لا تتناسب مع الوظيفة الأصلية للمبنى مما ترتب عليه الأضرار الفادح بالمباني.
- ضعف المصالح المختصة بمجال الآثار و التراث وقلة عدد الأجهزة و الوسائل وكذلك العجز الشديد في الكفاءات الفنية المدربة التي تعمل في مجال التراث بدءاً من الحرفيين في مختلف المجالات إلى المرمم ثم المهندس ذو الكفاءة الفنية الذي يقوم بأعداد مشروعات الحفاظ وإحياء المناطق التاريخية بصفة عامة.
- ضعف سلطة الأجهزة المشرفة على المناطق والمباني التاريخية وقلة عددها بالمقارنة بحجم هذه المناطق والمباني بالمدن التاريخية ولهذا تقف هذه الأجهزة عاجزة عن حماية الآثار و هذه المباني من التعديات التي يحدثها الأهالي أو أجهزة الدولة التي استولى على بعض الأماكن التاريخية.
- عدم تواجد الصيانة والإشراف الدوري الدائم الفعال أدى إلى تفاقم المشاكل الناتجة عن المسببات البيئية والبشرية على حد سواء.

7/ عامل التطور التكنولوجي :

- تأثير ميكنة قطاع النقل والمواصلات واستخدام السيارة: مما تطلب معه إنشاء طرق عريضة لتسهيل حركة المرور بها وهذا أدى إلى تدمير النسيج العمراني بالمناطق التاريخية ، فبعد أن كان الطريق بها مصمما لحركة المشاة فقط ونقل البضائع على عربات تجرها الدواب ، وكانت الشوارع الضيقة المتعرجة تفي بتلك الاحتياجات، دخلت السيارة إلى تلك الشوارع و تسببت في الضغط على النسيج العمراني و كحل لهذه المشكلة تم شق الطرق العريضة على حساب النسيج العمراني للمنطقة التاريخية وبالرغم من ذلك لم تحل مشاكل المرور بهذه المناطق بالإضافة إلى ظهور مشاكل للمشاة.

- **تأثير الذبذبات الناتجة من استخدام التكنولوجيا على المناطق التاريخية :** هذه الذبذبات عبارة عن موجات ضغط ناتجة عن صوت وحركة الآلات والسيارات وهي ذات تأثير سيئ على المباني التاريخية وتتكون هذه الذبذبات سواء كانت صوتية أو حركية من : ٣ تراكم المرور خاصة الثقيل والناقلات والقاطرات داخل المناطق التاريخية ، مرور الطائرات التي تخترق حاجز الصوت في مجال المنطقة التاريخية وهي تؤثر على مسافة 80 كم من مكان الطائرة ، تداخل بعض الصناعات والورش وتواجدها بجوار المناطق التاريخية وأخيراً القيام بأعمال بناء بجوار المناطق التاريخية أو داخلها وتستخدم فيها مدقات ذات ذبذبة عالية أو شق طرق باستخدام موجات ضغط مؤثرة وتنتقل الذبذبات إلى المباني التاريخية. ويتمثل أثر الذبذبات على المباني التاريخية في الشقوق والشروخ الموجودة في حوائط المبنى التاريخي ذات المونة الضعيفة، كما تتسبب في شق الحوائط المعرضة للتغيرات في درجة الحرارة والرطوبة وأخيراً تتسبب في هبوط الأساسات نتيجة لتأثيرها على التربة المحيطة لفترة طويلة و مستمرة.

- **تأثير التلوث الناتج عن تكنولوجيا النقل والمواصلات واستخدام السيارة :** يعتبر التلوث من أهم مصادر تشويه وتدمير المناطق التاريخية والمصادر الأساسية للتلوث إما طبيعية كالزلازل والبراكين والبكتريا والكائنات الحية الدقيقة....أو بفعل الإنسان و هي كل ما يتعلق بحياة الإنسان من آلية ومصانع وسيارات... وتأخذ الملوثات إحدى الصور الصلبة أو السائلة أو الغازية أو الضوضاء أو تلوث صوتي أو تلوث إشعاعي أو ملوثات معنوية (ذوق أو أخلاق)...

- **انتشار طرق ومواد البناء الحديثة أحد مشاكل المناطق التاريخية ومبانيها:** ففي ظل غياب وقصور القوانين المنظمة لعمليات البناء وغياب الأجهزة الإدارية و التنظيمية القائمة علي توجيه عمليات البناء والتحكم في العمران بهذه المناطق بدأت ترتفع مباني لا تتناسب مع طبيعة عمران هذه المناطق من حيث اللون أو الارتفاع أو الخطوط أو الطابع العمراني. كما أن وجود هذه المباني وأقامتها بهذا الارتفاع بجوار المباني التاريخية نتج عنه هبوط غير منتظم للتربة أسفل المباني التاريخية مما أدى إلى حدوث انهيارات وتشققات كبيرة بها وهذا ناتج عن انضغاط التربة أسفل المباني الحديثة وفي هذا تهديد لسلامة المباني التاريخية إنشائياً وقد يتسبب في انهيارها تماماً.

على أن الهدف وراء أية اعمال تكميلية يكون لصالح الأثر واعادة استخدامه،
مع تمييز الأعمال الأصلية عن الأعمال المستحدثة بالترميم